غربة السوفسطائيين في وطنهم

The exile of the Sophistsin in their homland

د. عدنان عبيد حسن

Dr.Adnan Obaid Hassan

وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ / جامعة كربلاء

الإميل : dradnan904@gmail.com

- ملخص البحث العام :

ربط القدماء بين السّوفسطائيّة وبين جملةٍ من الأغاليط ؛ فالسوفسطائيّة هي الحكمة الزّائفة أو المموهة ، والفيلسوف السّوفسطائيّ هو ذلك المخادع الّذي يستخدم أساليب التّمويه والاحتيال لتصوير الحقّ بمظهر الباطل ، أو تسويغ الباطل بصورة الحقّ ... ألخ . ربّما وجدنا بعض السّوفسطائيين المتأخرين من يستخدمون المنطق استخدامًا مغالطًا من أجلّ تعليم بعض الطّموحين كسب قضايا المحاكم ؛ بيدَ أنّ الحقيقة شيء آخر؛ فإنّ شيوخ السّوفسطائيّة الكبار وفي مقدمتهم بروتاجوراس ، وجورجورياس ، وإنتيفون ، وهبياس ، وبروديكوس ، والكاديماس وغيرهم ، كلّهم من الفلاسفة الحكماء الّذين أخذوا على عاتقهم مهمة تنوير الجماهير ، وتعليمهم فنون البلاغة والخطابة ، والبيان ، والفلسفة والمنطق .. و السّوفسطائيون أوّل من أعلن مبدأ الأخوة والمساواة بين البشر أجمع ، وبشّروا بولادة المجتمع العالميّ الّذي تزول فيه الفوارق القوميّة والدّينيّة . وهم أوّل من ميّز بين القوانين الوضعيّة الّتي تجعل من النّاس عبيدًا أو أسيادًا وبين القوانين الطّبيعيّة الّتي تردّ كلّ أبناء الجنس البشريّ إلى أصلٍ واحد ...

مفاتيح البحث : النسبية ، المساواة ، الحرية ، الإنسان معيار الحقيقة ، الشك ...

: **Research Summary**

The ancients linked sophistry with a number of fallacies. Sophism, as they know it, is false wisdom. The Sophist philosopher is a deceitful person who uses methods of deception and fraud to present falsehood with the appearance of truth, or to present falsehood with the appearance of truth. Likewise, some later Sophists use logic fallaciously in order to teach students to win court cases. However, the truth is something else. The great sheikhs of sophism, led by Protagoras, Gorgias, Antiphon, Hippias, Prodicus, Cadmus, and others, took upon themselves the task of enlightening the masses and teaching them the arts of rhetoric and statement. The Sophists declared the principle of brotherhood among all human beings, and they said: with the idea of a global community, in which national and religious differences disappear. They also distinguished between man-made laws that make people slaves or masters, and natural laws that return all members of the human race to a single origin .

Search keys : Relativity . Equality . Freedom . Standard of truth . Doubt

- المقدمة :

تتصف المباحث الفلسفية بالمرونة ؛ فهي لا تمازج صلابة العلم ، ولا طرواة الأدب ، ولا سردية التاريخ . والأصل في الفلسفة أصالة الفكرة ، وحرية الرأي ، وجرأة الطرح .

والفلسفة في الأصل رؤية الفيلسوف وبصيرته في موضوع معين . وتلك الرؤية لا تخضع لقيود مسبقة ، كما يخضع البحث العلمي ؛ بقدر ما تخضع لعقلانية استكشافية ماقتة للقيود .

وحين نختلف في رأي معين ؛ ليس بالضرورة أن يكون رأيك معصومًا عن الخطأ ، ولا أن تمتلك الحق في مصادرة أراء الأخرين إن لم تتوافق مع مذهبيتك المقيّدة بالتقاليد .

عادة ما يخوض الباحثون في الحقول الفلسفية في بيئات أكاديمية أو اجتماعية غير صالحة للبحث ؛ نظرًا لكون الحقول الأكاديمية مثقلة بالتقاليد والأعراف والآليات التي تجهض حرية الفكر ، وتضيّق الخناق ، وتقطع الطريق .

قرأنا كثيرا عن السوفسطائيين . وفي تواريخ الفلسفة ، يكاد يجمع المؤرخون على أن السوفسطائيين كانوا مجموعة من الفلاسفة عاشوا في القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد اليونان ، ونشروا المعرفة الفلسفية بين الراغبين بالتعلّم في مقابل الأجور .

كما وجدنا إجماعا لدى المؤرخين أن أول من تصدّى لهم كان سقراط الذي فضح أساليبهم في استخدام المغالطات في الاستنباط ، وإثبات النقيضين معًا ... ألخ . كل ذلك مبذول للقارئ في تاريخ الفلسفة . إنّ القارئ يستطيع أن يتعرّف عليه دون حتى أن يبذل جهدًا يُذكر ...

والحقيقة دائمًا لا تتأتى لطالب الحقيقة دون أن يبذل جهدًا ، ويتمرّس في النقد والتحليل والاستنباط ..

وكلّ جهودنا قد تذهب سدىً إذا لم يكن لدينا منهجًا تحليليًا ونقديًا معاصرًا ؛ فإن التراث لا يمكن أن نقرأه بعيون أهل التراث أنفسهم ؛ فهذه القراءة الشائعة لا تستحق أن نبذل فيها جهدًا ؛ طالما أنّها تنتهي إلى نفس النتائج التي ذكرها المؤرخون ألف مرّه . لا مناصَ أمامنا إلّا أن نعيد قراءة التراث الفلسفي أو غيره ، بروحٍ علمية وتفكيكية معاصرة ، وأن لا نبالي بعذل عاذل ، أو سخط ناقم ؛ فالحق أولى أن يُتبع .

ينقسم البحث إلى ثلاثة مباحث . فكان عنوان الفصل الأول ، أطوار النشوء في الفكر السوفسطائي ، تعرّضنا فيه إلى شيءٍ من التفصيل عن طبيعة السوفسطائيين في عصورهم الأولى . وقد تضمن النقاط المشتركة بينه وبين السوفسطائيين ، فسقراط لم يكن إلّا سوفسطائيًا اختلف مع السوفسطائيين في بعض النقاط ... وفي العنوان الثاني ، والذي كان (السوفسطائيون يجددون وظيفة الفلسفة) ، جاء تفصيل بعض الجزئيات والأفكار التي طوّرها السوفسطائيون لتغيير هوية الفلسفة من بحثٍ في الكليات المجرّدة إلى بحثٍ اجتماعي وتاريخي وتحليلي لحاجة المجتمع الفعلية لاستيعاب الدرس الفلسفي وفقا لمبدأ الحاجة والمنفعة .

المبحث الأول :

السوفسطائيون (القرن الخامس قبل الميلاد) :

منذ أن استهلّ سقراط عهد الخطاب الفلسفي الرسمي (إن صح التعبير) ، والمعترف به شرعا في تواريخ الفلسفة اليونانية ، وكذلك الفلسفة الغربية ، مثّل سقراط جهة المتبني لثوابت العقل الغربي ، والمنافح عن أفكار الفلسفة الرسمية .

قرأنا في تواريخ الفلسفة أن سقراط هو العدو الطبيعي الموكل بالدفاع عن قيم العقل ، وثوابت الفلسفة ، وهو بهذا التوكيل المتصدي الأهم لمبادئ وقيم الفلسفة السوفسطائية .

لم يخطر لنا أن سقراط (٣٩٩ ق.م) كان غطاء شرعيًا لأفكار أفلاطون ومواقفه، يحركه حيث يشاء ، ويضعه في مواجهة السوفسطائيين في معارك فكرية ملتهبة ؛ وقد مهد السبيل لذلك أن سقراط لم يضع كتابا واحدا على الإطلاق ، ولم تُؤثر عنه محاضرات مدونة في قراطيس ، فسقراط كان فيلسوفًا ميدانيًا متجولا ، آثر أن يتحدث عن الفلسفة شفاهًا ، منافحًا عن قيم وثوابت العقل ، كما صوّر ذلك أفلاطون لنا .

وبالرغم أن أكثر ما قيل عن سقراط ، لم يكن عن سقراط نفسه ، وإنما كان عما نقله أفلاطون عنه بالدرجة الأساس ، وهذا لايعني أن أفلاطون هو المصدر الوحيد لشخصية سقراط ، أو أفكاره وقيمه ؛ فإنّ بعض تلاميذه المخلصين له ، قد نقلوا عنه أفكارًا وصورًا ومواقفًا ، مختلفة عما تحدث به أفلاطون ؛ فإنّ أرستوفان ، ذلك المسرحي المشهور ، قد عدّه مهرجًا مخبولًا يناجي السحب ، ويتحدّث بأفكار خيالية . وهذا يمثل أقدم طعن وِجه إلى سقراط من قبل شخصية أدبية معاصرة له . مثّل أرستوفان سقراط في مسرحية السحب : ((جالسًا في سلّةٍ ، مرفوعة في الفضاء ، يناجي السحب ، مأوى المفكرين الخياليين ... ويتهمه بالكفر بآلهة المدينة ... ويعلن أن القِصاص العادل إحراق المدرسة ، وقتل صاحبها والتلاميذ جميعًا)) (كرم، ١٩٣٦، صفحة ٥٤) .

ربّما لا تعجبنا دعوة أرستوفان المبكرة ، التي تنال من سقراط أساسًا ، ولا تميّز بين فيلسوف وآخر. وواضح أنّ رؤية أرستوفان تمثل تيّارًا كبيرًا وساحقًا بين الأغريق الذين كانوا ينظرون بشزرٍ إلى الفلسفة باعتبارها أفكارًا غريبة تدعو إلى الكفر ، وتحط من قيم وعقائد آلهة اليونان . مهما حاولنا أن نتجاهل حجم ذلك التيار أو نقلل من قيمته في تواريخ الفلسفة ، ولكن للأسف هذا ما حصل بالضبط ؛ فقد تحققت دعوة أرستوفان وأُعدم سقراط ، وتفرّق التلاميذ آيادي سبأ ، وأُنجزت دعوات هذا التيار بالتمام .

الفلسفة شأنٌ خارجي غير مرغوب فيه ، يهدد السلم والأمن الداخلي ، كما أنّه يدعو للكفر بالآلهة القومية ، ويفسد عقول الشباب .

تلك الدعوة اللعينة ليست حكرا على بلاد اليونان وحسب ، بل كانت مشاعًا عامًا لكلّ الشعوب ، إذ نظروا للفلسفة نظرة استغراب واستنكار ، وريبة ...

يبدو أن سقراط قد مهد بنفسه الطريق لقتله ، والنيل منه ؛ فقد أخذ عن السوفسطائيين عقيدتهم الحرّة في البحث المستقل ، ودعا إلى تحرير العقل من قيود الأنساق الطبيعية والعقائدية .

لم يكن لسقراط أي نسق من الأفكار ، ولم يكن ينتمي لمذهب فلسفي قط ؛ وذلك بالضبط ما يعبّر عن الفكر السوفسطائي الجديد الذي أخذ يجتاح مدن بلاد الإغريق ، ويكشف عن نفسه بحورات جدلية ، لنشر الفلسفة بين الجماهير ، وذلك منذ فجر القرن الخامس قبل الميلاد ، فنازلا .

أولئك العظماء ، معلومو البشرية الكبار ، لم يدونوا حرفا واحدا من تعاليمهم السامية ، لم تكن لهم كتبٌ ولا قراطيس ، ولا أقوالا مدونة . بالتأكيد لقد أنكروا ذاتهم ، وتعمّدوا أن ينشروا الفلسفة بين الناس ، رغم ما في ذلك من مخاطر على حياتهم ؛ فالجماهير هي قطعان الطغاة ، وملك آلهة القوة والشهوة ، لا يمكن السماح لسقراط أو لسوفسطائيين أن يخرجوا الفلسفة من برجها العاجي ؛ لينشروا تعاليمها بين الشبّان ؛ هذا خطر مميت ...

الوعي ، ولغة العقل ، وحرية الرأي ، أكثر ما يخشاه الطغاة ، ويخافه سدنة الجهل والتعصّب .

تعرّض سقراط ، إلى عمليات تأويل مستمرّة ، وأجريت له أكثر من عملية جراحية لبرمجة أفكاره حتى تتلاءم مع المستوى المقبول والمسموح به في تواريخ الفلسفة الرسمية . ولا نستبعد أن يتعرّض السوفسطائيين إلى نفس عمليات التكييف ، أو النبذ ، على اعتبار أنّهم يمثلون الوجه الآخر المرفوض والمنبوذ (غير المرغوب فيه) في مجتمع الفلاسفة الرسمي ، والذي يمثله أفلاطون وأرسطو طاليس بجدارة .

يعتقد يوسف كرم : ((إن أرستوفان جمع في شخص سقراط خصائص الطبيعيين و السوفسطائيين ، وأراد أن يهجو هذه الجماعة المتفلسفة)) (كرم، ١٩٣٦، صفحة ٥٤) .

الشيء المؤكد أن أرستوفان قد عدّ سقراط في عداد السوفسطائيين ، ولم يكن مخطئًا تمامًا ، ومن ناحية أخرى لا يمكن أن نعد أرستوفان جاهلًا بالفلسفة ، لا بد أن يكون قد اطلع على حياة الفلاسفة ، ووقف على بعض أفكارهم ، على رغم من تحامله ضد الفلاسفة المكشوف .

كانت حياة سقراط نسخة مشابهة إلى حدٍّ ما مع بعض فلاسفة السوفسطائية الأوائل ، لكنّهاختلف معهم في عدم رغبته بجمع المال ... وحبّ المال أو جمعه كان غاية بعض السوفسطائيين ، وعليه استحقوا أن ينالوا اللوم والعتب ؛ فإنّ جمع المال أو حبّه لا يتلاءم مطلقًا مع طبيعة الفيلسوف .

قيم الفيلسوف كما قررَ ذلك سقراط تتعارض تعارضا مع رغبة النفس في حبّ المال أو جمعه . الفيلسوف إنسان نذر نفسه لطلب الحقيقة ، والحقيقة لذاتها دون زوائد أو شوائب أو رغبات زائدة على الرغبة الصادقة في طلب المعرفة .

ولكننا نجد من ناحية أخرى تطابقًا تامًا في المنهجية التي اتخذها سقراط طريقا لإيقاع الخصم أحابيل التناقض ؛ تلك كانت منهجية التوليد أو الجدل ، فسقراط يبدأ حديثه بسؤال ظاهره بريء بل وساذج ، مع ادعاء ظاهر بالجهل وعدم المعرفة ، حتى إذا اطمأنّ خصمه بذلك ، واعتقد بسذاجته وجهله ، وراح يتحدّث معه بسجيةٍ طبيعية ؛ فسرعان ما يسقطه سقراط بالتناقض ، وينقض عليه كالصاعقة ؛ وهذا هو ذات المنهج الذي كان يعلّمه السوفسطائيون لتلاميذهم ، في مقابل طلب المال ؛ لكسب القضايا والمرافعات أمام القضاء ، أو في حلقات الحوار.

إنّ الأثر الحاسم في تغيير ملامح شخصية سقراط ، وفي تكييف أفكاره كان لتلميذه النابه أفلاطون (ت ٤٣٤٨ ق.م) .

بذل أفلاطون جهدًا هائلًا في تخليد ذكرى أستاذ سقراط ، وخلع عليه حلّة مثالية مزينة بقيم العقل المطلقة . ولكن للأسف لم تكن تلك الصوة المثالية التي رسمتها ريشة أفلاطون الأدبية الرفيعة لسقراط إلّا صورة شبحية لحقيقة أفلاطون نفسه . لقد حطّم أفلاطون حقيقة سقراط التاريخية ، كما حطّمت الكنيسة البابوية حقيقة السيد المسيح التاريخية ، وكثيرا مايكرر التاريخ نفسه .

يقول بارتلمي سانتهيلير في مقدمته الرائعة لعلم الأخلاق : ((إنّ الكلام على أفلاطون هو الكلام على سقراط في آنٍ واحد . فقد يجوز أن يكون التلميذ قد تحوّل عن مذهب أستاذه فيما وراء الطبيعة وفي المنطق وفي السياسة .

أما في علم الأخلاق فإنّ سقراط وأفلاطون ليسا إلّا واحدًا . وقد يصعب على النظر الثاقب أن يميّز آراء أحدهما عن الآخر)) (طاليس، ١٩٢٤، صفحة ٣١) .

يقرّ سانتهيلير أنّ أفلاطون قد طمس حقيقة سقراط التاريخية كذات فكرية مستقلة في مشروعها الفلسفي ، وتصوراتها الاجتماعية والسياسية ، ولكنه مع ذلك يعتقد أن آراء سقراط وقيمه واعتباراته الأخلاقية هي عينها أفكار أفلاطون أيضا ؛ فكيف حسم سانتهيلير هذه النتيجة بكلّ هذه البساطة ؟ .

في البدء كان إتجاه سقراط لا يختلف كثيرا عن الطريق الذي اتخذه السوفسطائيون لأنفسهم ، وبالفعل لقد تكللت جهودهم بالنجاح حين أنزلوا دراسة الفلسفة من السماء إلى الأرض . فهل كان هذا مجرد صدفة أن يصبح الإنسان محط اهتمام سقراط كما محل اهتمام السوفسطائيين ؟ .

بكل تأكيد أن الظروف البيئية والاجتماعية والتاريخية كانت عوامل حاسمة . كان سقراط ينتمي في انتمائه الطبقي إلى نفس الفئات الاجتماعية الفقيرة والمحرومة التي ينتمي إليها السوفسطائيون الذين كافحوا طويلا لأجل بثّ فكرة المساواة بين الناس جميعا . لا فرق هناك بين اليوناني الحر وبين البربري ، كما يدّعي الأورستقراطيون الذين ينتمي إليهم أفلاطون ، لا في العقل ولا في العاطفة ولا في الألم ، لكنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان جعل بعضهم أسيادا والأخرين عبيدا . ثار السوفسطائيون ضد هذا التمييز الأورستقراطي ، وفندوه بكلّ الطرق ، وأثبتوا طيش وسفاهة تلك العنصرية .

إنّ واحدة من أهم التهم التي وجهت ضد سقراط في محكمة أثينا ، أنّهم قالوا : ((إنّه جدلي بارع ، يجعل الحجة الضعيفة تبدو وكأنّها الأقوى ، أي بانتمائه إلى طبقة الفلاسفة الكوزمولجيين من جهةٍ ، وإلى السفاسطة من جهةٍ أخرى . وقد أنكر سقراط كلتا التهمتين ، وتشبث بالقول أنّه لم يشتغل بالأمور الكوزمولوجية أو الطبيعة قط ، بل بشؤون الإنسان ، وإنّه خلافا للسفاسطة لم يطمع قط بكسب مالي أو جاه سياسي)) (فخري، ب.ت، صفحة ٦٩).

ما يميّز سقراط عن السوفساطئيين ، إذن ، إنّه لا يحرص على المال ، كما يحرص عليه السوفسطائيون ، وهو لايهتم بالأمور السياسية ، لكنه يشترك مع السوفسطائيين بالانتماء الطبقي ، وله معهم ذات الاهتمام في الإنسان الذي حسبوه المحور الأهم للفلسفة ، كما أن سقراط يستعمل نفس المنهج الجدلي المناور الذي يستخدمه السوفسطائيون .

في تواريخ الفلسفة الرسمية تبدو الفوارق بين سقراط و السوفسطائيين هائلة . لا شك أن هناك خلافات كبيرة بين الطرفين ، لكنها بالعموم ليست بالخلافات الجوهرية أو الإساسية ، لقد اختلفوا في الأعراض واتفقوا في الجواهر .

إننا نتلمّس في محاورات أفلاطون حيث يتحدث فيها سقراط ، رائحة عداء أرستقراطية – طبقية ضد السوفسطائيين.

((التعاليم السقراطية أخلاقية في جوهرها ، وفي هذا وحده يكمن أيّ تشابه بين سقراط والسوفسطائيين . لقد كان السوفسطائيون هم الذين أدخلوا في الفلسفة اليونانية مشكلة الإنسان ، وإلى هذه المشكلات يوجه سقراط انتباهه بالكامل)) (ستيس، ١٩٨٤، صفحة ٩٩) .

إن من الأمور الأكثر حساسية في هذا الاتجاه أن سقراط لم يشيّد أبدا أي نظام فلسفي – عقدي ، ولم تكن له مدرسة خاصة ينتمي إليها ، وفي تاريخ الفلسفة ، لم يعرف له نسقا ما ، حتى أدنى نسق مذهبي . كان سقراط بالفعل شأنه في ذلك شأن السوفسطائيين تماما يمكن تصنيفه ضمن صفوف الفلاسفة الأحرار ، الذين بحثوا الحقيقة لأجل الحقيقة دون أن يكون له تيّار أو نظام فلسفي كما نجد ذلك عند أفلاطون أو أرسطو .

على العكس من ذلك عمل السوفسطائيون ، كما فعل سقراط بالضبط على تدمير أنساق العقل وقيوده المذهبية ، عندما رفضوا بناء المذاهب الإيقانية المتصلبة ، التي أساءت إلى العقل قبل أن تسيء إلى الفلسفة ، وتحجرها في مذاهب ومنظومات تقليدية متخشّبة .

حرر السوفسطائيون ، وسقراط العقل باتجاهين مختلفين بعض الشيء . اتجه السوفسطائيون إلى الحواس فأطلقوا العنان لها ؛ فساهموا في إغناء قوة التجربة والملاحظة ، واتجه سقراط إلى العقل ؛ فحرره من قيوده ، واتخذ منه معيارا للحقيقة الكلية .

بعض المؤرخين لتاريخ الفلسفة ظنّوا أن هناك تناقضًا بين العقل والحواس ؛ مما جعل الفلسفة تنشطر إلى قسمين مختلفين ؛ مما يعبّر عن انحسار الأفق ، وضيق الرؤية .

ساهم السوفسطائيون كثيرًا في تقدم المعرفة ؛ لقد كانوا أول من وجهوا الانتباه إلى دراسة الكلمات والجمل والأسلوب والنثر الفني والإيقاع ... ونشروا التعليم والثقافة في أنحاء اليونان أجمع ، وأوجدوا دافعًا كبيرًا لدراسة الأفكار الأخلاقية التي جعلت من تعاليم سقراط أمرًا ممكنًا .

الكثير من المؤرخين يعتقدون أنّ الفلسفة تصنع الحياة ، وأن التاريخ تسيّره الأفكار والنظريات . غير أن للتاريخ رأيٌ آخر مختلف .

إنّ القوى التي تصنع الأحداث ، وتُحدث الزلازل وتفجّر البراكين لا تحفل بالفلاسفة ، ولا تهتم بالأفكار ؛ إنّها قوى تاريخية ، كثيرًا ما تحرّكها إرادة الأشرار . الأقوياء والجبابرة ، والقتلة المأفونون يصنعون الأحداث ، ويحركون الجيوش ، ويريقون الدماء ، ثمّ يصنع المؤرخون منهم أبطالاً وفاتحين ، وبعد كل ذلك تنجز الفلسفة فهماً أو وعياً معيناً لإدراك ماحصل . الفلسفة ، إذن نتيجة أو موجة مصاحبة لحركة التاريخ ، أو حركة الأمم ، وليست مقدمة أو علّة عقلية لها ؛ هذا ما لايريد أن يعترف به تاريخ الفلسفة .

لقد أحدثت الديمقراطية الإثينية فعلها السياسي أولًا ، ثم أعقبتها تموجات اجتماعية صاخبة ، وحروب أممية طاحنة . لقد أصبح الأثرياء والمترفون بحاجة ماسّة إلى الثقافة والمعرفة . أراد الكثير منهم أن يصبحوا أعضاءً برلمانيين ، ومنهم من أرادوا أن يكونوا خطباءً مفوهين ، وبعضهم طمحوا أن يكونوا قضاةً ، وهكذا . لقد أوجدت الحاجات الاجتماعية الجديدة الوظائف الشاغرة التي ملأها السوفساطئيون فورًا استجابة فكرية لحاجات اجتماعية حقيقية ...

نجح السوفسطائيون في تغيير مسارات الفلسفة الأيونية القديمة ، وجعلوها في متناول الجماهير الطموحة . الإنسان هو الشغل الشاغل للفلسفة السوفسطائية الجديدة . لم يعد لمباحث الطبيعة ذلك الاهتمام الذي كان لها من قبل ، لكن السوفسطائيين كانوا يلعبون بالنار ؛ فقد علّموا الجماهير إثبات النقيضين معاً ؛ فقدحوا بذلك شرارة الشك ، واللا أدرية .

من المؤكد أنّ الفلسفة السوفسطائية تختلف عن مسارات الفلسفة الأيونية – الطبيعية في نظرتها للحياة والوجود ((السوفسطائية تعالج العالم الصغير ... أي الإنسان ، وليس العالم الكبير ... أي الكون ، فقد أصبح الإنسان واعياً لذاته ، كما يقول سوفوكليس . غير أنّ السوفسطائية تختلف عن الفلسفة السابقة من حيث المنهج ... الفيلسوف السوفسطائي سعى إلى تجميع ملاحظات ووقائع جزئية هائلة ؛ فقد كانوا موسوعيين ، متعددي الثقافة ، ومن هذه الوقائع المكدسة ، يتقدمون لاستخراج النتائج من الناحية النظرية ، ومن الناحية العملية ... ومن ثمّ فقد كان منهج السوفسطائية منهجًا تجريبيًا استقرائيًا)) (كوبلسن، ٢٠٠٢، صفحة ١٣٧) .

كانت السوفسطائية استجابةً طبيعية وتاريخية لعالم جديد يتغيّر . كانت الفلسفة الطبيعية تعبير عن عالم روتيني بطيء التغير ، يمثل عالم التجارة والاستقرار السياسي ، كما يمثل دويلات المدن الساحلية المطمئنة .

التجارة الحرّة والمستقرّة والمؤمنة بأساطيل الفينيقيين التي تجوب البحر الفينيقي .

وجد الأيونيون أنفسهم في روضة مالية وتجارية بما يكفي ليوفر للفلاسفة حياة الدعة والتأمل الفلسفي الرغيد ، وما أن بدأت طلائع الجيوش الإخمينية تغزو بلاد الشرق وتهدد طلائعها مدن الساحل الأيوني ؛ فسرعان ما أخذ العالم يتغيّر بسرعة كبيرة ، وتظهر الحاجة إلى فلسفة جديدة تستجيب لمنطق العالم الجديد .

أخذت القوات الإخمينية (الفارسية) تستولي على المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى وذلك منذ النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد ، زبدأ العالم يقبل على أشياء جديدة . لم تعد فلسفة إنكسوغوراس الملطي ، ولا إنكسيمندرس أولا طاليس الملطي تكفي بالغرض ، أو تمثل أحوال عقل قادر على أن يستوعب حاجات مجتمع إمبراطوري كبير ومتعدد ، ومختلف .

لا يمكن للعالم الإغريقي أن يقف مكتوف الأيدي أمام عالم جديد متقلّب الأحوال . كادت بلاد الأغريق أن تسقط بيد هؤلاء الغزاة الإخمينيين ، القادمين من أقصى بلاد الشرق .

لقد سقطت بلاد الأشوريين تحت زحف الجيوش البابلية والإخمينية المتحالفة معها عام ٦١٢ ق.م ، وتمّ سحق جيوش الإمبراطورية المصرية في موقعة كركميش عام ٦١٢ ق.م ، ثم سقطت بابل عام ٥٣٩ق.م ، ، وسقطت مصر بأيدي القوات الإخمينية عام ٥٢٤ق.م ، وقبل قرن من هذا الزمان أصبحت المدن الفينيقية تحت رحمة النفوذ الإخمينية ، كما ضُمت مدن الساحل الأيوني إلى الإمبراطورية الإخمينية أيضًا ...

كان العالم القديم كلّه يتهاوى ويتغيّر حول هذه البقعة الصغيرة التي تسمّى ببلاد اليونان ... فإن أرادت الفلسفة أن تواكب حركات التاريخ فما عليها إلّا أن تتغير كذلك .

((لقد أراد الكوسمولوجيون اكتشاف الحقيقة الموضوعية عن العالم ، فقد كانوا بالدرجة الأولى باحثين محايدين ، يسعون وراء الحقيقة الموضوعية أساسًا ، لقد كان الهدف عندهم علميًا وليس نظرياً، وهكذا أصبح السوفسطائيون أدوات التنوير والتدريب في المدن اليونانية ، مستهدفين تعليم الناس فن الحياة والسيطرة عليها)) (كوبلسن، ٢٠٠٢، صفحة ١٣٧)

المبحث الثاني :السوفسطائيون يجددون وظيفة الفلسفة :

ولدت الفلسفة غريبةً في بلاد اليونان ، مثلما هي غريبة في كلّ بلاد ؛ فأغلب مواضيع الفلسفة مثالية ومجرّدة لا تألفها الشعوب ، ولا تتفاعل معها ؛ فهي مطالب عالية ، فكرية على درجة عالية من التجريد والشمولية . وعادةً

ماينظر الناس للفيلسوف كشخص غريب الأطوار ، تُثار حوله الريب . وغالبًا ما يواجه الفلاسفة تهم الإلحاد ؛ وهكذا يحكم عليهم بالموت ، أو ينفون من الأرض ، أو تحرق كتبهم ...

يتحدّث فردريك نيتشه (ت ١٩٠٠م) في نصٍ مهم عن غربة الفلسفة في المجتمع . يقول : ((وإذا أجبرنا الفلسفة على الكلام فباستطاعتها أن تقول تقريبا مايلي : أيّها الشعب التعيس : أهو خطأي إذا كنت مكرهةً على التجول في بلادك كعرّفةٍ مغامرة ، وعلى التستر والتقنع كما لو كنت المتهمة ، وأنتم قضاتي ؟ .... صحيح إننا لانملك هنا مبررًا ولكن والقضاة الذين سيحكمون علينا لسوف يدينونكم أيضًا ، ويقولون لكم : لتكن لكم باديء ذي بدء حضارة ، ولسوف تدركون فيما بعد ماذا تريد ، وماذا تستطيع الفلسفة أن تفعل)) (نيتشه، ١٩٨٣، صفحة ٤٦) .

لا يمكن للفلسفة أن تعيش أو تنتعش في مجتمعات تعبد المال ، وتقدّس الطغاة والمستبدين ، وتتخذ من آلهة الزيف شفعاء لها .

يقول نيتشه أيضًا : ((الفلسفة إنما كانت مجرّد إستيراد قام به الإغريق ، وإنّها لم تنبت على أرض الوطن ، وأن نذهب حتى إلى القول أنّ الفلسفة كجسم غريب ، قد خرّبت الإغريق أكثر مما شحذت عزيمتهم . من العبث أن ننسب للإغريق ثقافة أصلية ؛ إنّهم بالعكس هضوا الثقافة الحية لشعوب أخرى ...)) (نيتشه، ١٩٨٣، صفحة ٤٠) .

ما يدعم عقيدة نيتشه في رأيه المتقدم حول غربة الفلسفة في بلاد الإغريق ، ما نجده في محاكمة سقراط حيث أظهر القضاة ، والمدعين معًا ، والادعاء العام للمحكمة جهلًا فاضحًا على الرغم من سقراط كان قد نقل لغة الفلسفة إلى إفهام العامة ، وجادلهم بلغة واضحة . ففي دفاع سقراط عن نفسه ضد التم التي وجهها إليه ميليتس (أحد شهود الادعاء)، قال سقراط : ((شهدتم بأنفسكم في ملهاة أرستوفان كيف اصطنع شخصًا أسماه سقراط جعله يجول قائلًا : إنّه يستطيع أن يسير على الهواء ، وأخذ يلغو في موضوعات لا أزعم أني أعرف عنها شيئًا ... ولكني ما زلت أودّ يا ميلتس أن أعرف منك فيمَ كان إصراري على إفساد الشباب ... ويرد ميليتس قائلًا : إنّ هذا حق بأنّ سقراط لا يؤمن بآلهة المدينة ، بل هو ملحد ومعلّم للإلحاد ، وذلك أنّه يقول بأنّ الشمس كتلة من الحجر، وإنّ القمر مصنوع من التراب ... لكن سقراط ... مشيرًا إلى أنّ هذه آراء إنكساغوراس الكلازوميني ، وقد ألصقها أريستوفان بسقراط في رواية السحب ؛ فذاع بين الناس أن سقراط يقول بها)) (أبو ريان، ٢٠١٤، صفحة ١٠٤) .

ومع أن سقراط كان بريئًا تمامًا من كلّ التهم التي وجهت إليه ، فقد تمّ حكم المحكمة عليه بإدانته ؛ فدلّ ذلك على جهل أهل أثينا بأبسط مبادئ الفلسفة التي كان سقراط يتحدث بها بين أظهرهم .

لقد جاء السوفسطائيون لكي يعطوا للفلسفة وظيفة عملية جديدة للفلسفة ، حقيقة عملية تفهمها الجماهير ، وتكون قريبة من احتياجاتهم اليومية .

أرادَ السوفسطائيون تغيير شروط الفلسفة ، وتحسسوا مدى مقبوليتها لدى الجماهير أولا ، كما أنهم عملوا جاهدين على توعية الجماهير ونشر أفكار الفلسفة العملية ، ثانيا .

إنّ الوظائف العملية التي إقترحها السوفسطائيون للفلسفة تخصّ مصالح وإهتمام الناس ، ولكن لا يعني هذا ، إهمال العوامل التنويرية للفلسفة بوصفها قوّة فكرية محررة ومنوّره للإدراك ، وهكذا نقلوا مواضيع الفلسفة من الميادين الطبيعية والفلكية والميتافيزيقة التي كانت محل اهتمام الفلسفة الأيونية إلى حقول أكثر مباشرة لهموم الناس وانشغالاتهم اليومية ؛ فأخذوا يعلمون الناس فنون الخطابة ، وأساليب البيان ، , وبدؤا يشرحون لتلاميذهم طرق تركيب القضايا في مقدمات بسيطة ، لاستنباط قضايا ثانوية منها أو نتائج ، كما بينوا لهم فنون بناء الحجج ، وسُبل الدفاع عنها . ولكن بعضهم راح يعلمون مهارات الدفاع عن القضية ونقيض القضية معا ؛ وهكا أثبتوا النقيضين معا عن طريق فنون جدلية تحتمل كلا القضيتين المتناقضتين ...

فكان قسم منهم يتفنون في مهارات الخداع اللفظي أو الخطابي ؛ ومن ذلك أنّهم كانوا يتصنعون الجهل ، ويظهرون لخصومهم السذاجة ، حتى استوثقوا من خداعه وأوقعوه في التناقض ؛ انقضّوا عليها وبينوا بطلان حجّته ، وهذا ، كما نلاحظ هو نفس الأسلوب الذي اتبعه سقراط في إيهام الخصم ثمّ احتوائه .

نجح السوفسطائيون في كسب ثقة الناس ، وأقبلوا عليهم يتعلمون منهم أساليب ربح القضايا .

يعترف أفلاطون في محاورة بروتاجوراس أن السوفسطائيين قد نالوا إعجاب الجماهير ، وهذا هو النصّ : ((إنّ الحاضرين يقفون في جملتهم في صف السوفسطائيين ، ولا نجد في المعسكر الآخر إلّا سقراط و القبيادس ... وربّما كان الدليل المحسوس على موقف الحاضرين ذلك هو توالي التصفيق لما يقوله بروتاجوراس ... وهذه الرغبة الشديدة في الإنصات إليه التي يشترك فيها العديد من التابعين الغرباء وأهل أثينا المبهورين . والتابعون المعجبون يلتفون حول بروتاجوراس وحول برورديقوس وهبياس على السواء)) (أفلاطون، ٢٠٠١، صفحة ٢٤) .

لماذا يقف أهل أثينا مع السوفسطائيين ، وينبذون موقف سقراط ، مع أن سقراط من أهل أثينا ، وبروتاجوراس رجلٌ غريب ؟ . لا نحتاج إلى دليل كبير أن المواضيع التي يخوض بها سقراط عن الحق والعدل والجمال ، وخلود النفس ، وتنزيه الآلهة ... لخ ، مواضيع لا تنال اهتمام الناس ، لأنّها أحاديث تتجاوز نطاق المحسوس والذائقة الشعبية ، بينما يتكلّم كلٌّ من بروتاجوراس وهبياس وبروديقوس وغيرهم بأحاديث وقضايا من صميم انشغالات الناس آنذاك .

كان السوفسطائيون علماء اجتماع بشري ، وخبراء نفس مؤكدون بالمشاعر الإنسانية . ولو فرضنا جدلا أن السوفسطائيين تناولوا أيضًا بعض قضايا الفلسفة الأخرى ، مع ذلك لم يتكلّموا أمام الناس بالطريقة التي يتحدّث بها أفلاطون ، أيّ بالطريقة العقلية المجرّدة ، بل على العكس من ذلك فإنّهم عرضوها بطريقة حسيّة ، بل قل بطريقةٍ شعبية ، محببة إلى ذائقة الجماهير .

إبتداء من ذلك التاريخ أصبحت وظيفة الفلسفة تنشغل بمشاغل الإنسان العملية ، وهي غير معنية بالبحث عن طبائع الآلهة ، أو خلود النفس ، أو طبيعة الجمال ، أو حقيقة المُثل ، أو ضرورة انتصار الحق ، أو طلب الحقيقة لأجل الحقيقة . ولكن كلّ ذلك لايعني أن الأمور كانت تجري كما يريد السوفسطائيون ؛ فإنّ من طبيعة الجماهير أنّها متقلّبة ومزاجية ، وهذا ما حصل لبروتاجوراس والذي انقلبت الناس ضده حين أبدى رأيه الصريح بحقيقة الآلهة .

قال بروتاجوراس عن سؤال وجه إليه عن طبيعة الآلهة : ((أنا لا أستطيع أن أعلم إذا كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة ، ولا هيئتها ماهي ؛ لأنّ أمورا كثيرة تحول بيني وبين هذه المعرفة ، منها غموض الموضوع ، وقصر الحياة)) (النشار، ٢٠٠٠، صفحة ٤٩) .

دفع بروتاجوراس ثمن هذا التهور غاليًا جدًا ؛ فقد عمدوا إلى إحراق كتبه ، غير أنّه نجا من أيديهم بإعجوبة ، ولكن السفينة التي هرب فيها تحطّمت عرض البحر ، ولقى هناك حتفه .

ليس بعيدًا أن يكون بروتاجوراس قد تعرّض إلى مكيدة من أحد خصومه ، وما أكثر خصوم الفلسفة ، وأعداء الحقيقة ! .

إنّ سؤال بروتاجوراس عن الآلهة هو بحد ذاته يحتوي على مخاطرة كبيرة ، فضلا عن كونه خارجًا عن اهتمامات السوفسطائيين أساسًا .

كان سقراط يعلّم الفلسفة بمعايير مثالية عالية ، وغريبة على ذائقة الشعب الإغريقي المعتاد على طبائع الحواس وقيم الحياة الطبيعية . كان يعلّم قيم ومثالية ماينبغي على الإنسان أن يفعله ، بينما كان السوفسطائيون يعلمون الناس ماهي عليه طبائعهم وأخلاقهم بالضبط ؛ والفرق بين الطريقين واسع جدًا . يقول تراسيماخوس ، وهو أحد السوفسطائيين الذين اهتموا بمفهوم العدالة : ((إنّها تحقيق مصلحة الأقوى ، ثمّ فهي تسير دائمًا مع ما يراه الحاكم ؛ ففي كلّ دولة تضع الحكومة القوانين لصالحها ؛ فالديمقراطية تضع قوانين ديموقراطية ، والملكية تجعلها ملكية ... إنّ ما هو مشروع وعادل بالنسبة إلى رعاياها ، إنما هو مافيه صالحها هي ذاتها ، وتعاقب من يخالف ذلك على أنّه خارج عن القانون والعدالة)) (النشار، ٢٠٠٠، صفحة ٥٠) .

ولقد أوضح فيلسوف سوفسطائي آخر هو جلوكون المعنى ذاته في تعريف العدالة ولكن بطريقة مختلفة بعض الشيء . قال : ((إنّ أفعال العادل مماثلة لأفعال الظالم ، وإنّ كلّ إنسان لايفعل إلّا مافيه منفعته ومصلحته الشخصية حتى أولئك الذين يمارسون العدالة يفعلون ذلك مكرهين ، ولأنّهم عاجزين عن أن يقترفوا الظلم)) (النشار، ٢٠٠٠، صفحة ٥٠) .

السوفسطائيون فلاسفة واقعيون وتحليليون ، يدرسون طبيعة الإنسان إذ هي طبيعة الإنسان في محيطها الواقعي والاجتماعي والتاريخي . إنّهم غير مهتمين بالقيم المثالية المطلقة التي يتحدّث عنها سقراط أو أفلاطون أو حتى أرسطو . إنّهم علماء بالمعنى الدقيق للكلمة ، وتنويريون رغم كلّ المؤاخذات والمثالب التي نالت منهم .

المبحث الثالث :

السوفسطائيون يؤسسون قواعد الشك في الفلسفة اليونانية .

كانت محاولة توطين الفلسفة في بلاد الإغريق ، تتطلّب عملًا دؤوبًا لتحديث طبيعتها المثالية المجرّدة ، وبما ينسجم مع الطبيعة الحسيّة للشعب الإغريقي ؛ وهذا ما أنجزه السوفسطائيون في ظروف سياسية أخذت جهود ما يزيد على قرنين من الزمان .

لم يكن نشاط السوفسطائيين مقتصرا على أثينا والمدن الكبرى فقط ، بل تغلغل نشاطهم إلى القرى والجزر النائية ، يعلّمون الناس ما ينفعهم في ميادينهم العملية ، وما ينسجم مع طبائعهم التي نشؤا عليها ؛ وهم بذلك الجهد الكبير يكونون قد نجحوا في إخراج الفلسفة من عزلتها العاجية ، ونثروها بين الجماهير .

((لقد غيّر السوفسطائيون مجرى الفكر وأحلّوا ... محل هذه الموضوعية فكرة النسبية ، ولا سيما في ميدان المعرفة والأخلاق ، وكذلك يرجع إليهم الفضل في القول إنّ اللغة ذات أصلٍ تعاقدي ، وأنّ الدولة كذلك تعاقدية ؛ فهي ليست ، من صنع الآلهة ، والدين كذلك لايتضمن حقائق ... مطلقة وغيبية ، بل هو نظام اجتماعي نشأ في المجتمع نتيجةً لحاجات اجتماعية ، وكذلك جاء على لسانهم اعتبار القوانين والعادات والتقاليد نسبية ، أي أنّها إذا كانت تصلُح لشعبٍ معين فإنّها لن تستقيم في شعبٍ أخر)) (أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ٩٤) .

يمكن أن نتصوّر أن السوفسطائيين يستجيبون لروح الشعب الإغريقي ، فالفلسفة يجب أن لا تبقى أفكارًا وقيمًا منعزلة أو متعالية على هموم الناس أو اهتماماتهم الواقعية .

لو نظرنا بإمعان في نظرية كاليكليس ، وهو أحد تلاميذ جورجياس ، والتي تقول أن الحق للأقوى ، قد لا يبقى لدينا شك في أنّ ما يقوله فردريك نيتشه في منطق القوة هو استمرار أو استلهام لنظرية كاليكليس السوفسطائي . يقول نيتشه : ((الأخلاق والقوانين من عمل الضعفاء من الناس ، وهم أغلبية أفراد المجتمع الذين يريدون بهذه القوانين أن يكبحوا جماح الأقوياء فيطيلوا الكلام عن نظريات العدالة وأساس القانون وما تتحكم به الأخلاق ، كل هذا العرض واحد وهو السيطرة على الأقوياء ، وانتزاع الحق والمنفعة والسلطات من أيديهم)) (أبو ريان ، مصدره السابق ، ٩٧ . ٩٨) .

إنّ التعارض بين الفلسفة التي بشّر بها سقراط وأفلاطون وبين قيم ومبادئ الفلسفة السوفسطائية ، التي أحدثت فجوة كبيرة في الفلسفة فيما بعد ، وهذا بدوره قد سمح لمذاهب الشكاك واللا أدرية أن تعيد النظر بقيم المعرفة ، وقدرة على العقل على بلوغ الحقيقة .

والشك بحد ذاته جزء أصيل ومبدأ رئيسي في مبادئ الفلسفة . فلو اقتصرت الفلسفة على مسلمات اليقين فإنّها عندئذ لن تختلف كثيرا عن أيّ عقيدة دينية دوجماطيقية ، ولأصبحت أنساق ومذاهب أفلاطون وأرسطوطاليس وكانط وهيغل وديكارت في حكم المقدسات الدينية ؛ فللسوفسطائيين الفضل في إرساء قيم النسبية المعرفية ، وفي تثبيت حكم المعيارية الإنسانية في أي قضية يسلّم أصحابها ببرهانيتها التامة .

وحسب مبدأ نسبية المعرفة ، ومعيارية العقل البشري ، ومبدأ تبدّل طبيعة المعرفة ، أصبح الشك جزءًا متممًا لأي بحثٍ أصيل . الحقيقة ، وفقاً لمبدأ النسبية السوفسطائية لم تعد قيمة مطلقة بذاتها كما ظنّها سقراط وأفلاطون ، لكنّها أصبحت متغيّرة وجزئية وإحتمالية ، ومقيّدة بمشروطيات الزمان والمكان . ثمّ أضاف السوفسطائيون مبدءًا

آخر ينظّم عمل الحقيقة ؛ فقد ربطوا بين الحقيقة والمنفعة التي تستطيع أن تنجزها الحقيقة . وهنا تصبح الحقيقة تساوي المنفعة وتتماشى معها .

أصبح هذا القانون السوفسطائي الجديد ، لا يسري على الفلسفة وحسب ، بل يشمل حقائق العلم التجريبي فيما بعد أيضًا . يجب أن تكون للحقيقة العلمية فائدة عملية ، بل وعليها أن تنجز ربحًا مؤكدًا ، وإلّا فإنّ أحدًا لن يهتم بها أو ينفق عليها .

ذلك المنهج الجديد حدّ من عزلة الفلسفة ، وحطّم كثيرًا من غرور الفلاسفة ، بقدر ما أسس لمنهجيات الشك والريبة والاحتمالية . لحسن حظ الفلسفة أنّ أكثر مبادئ السوفسطائية قد انتصرت أخيرًا حتى عند أولئك الذين انتقدوا السوفسطائية .

يرى وولتر ستيس أنّ : ((عصر التنوير اليوناني عقِب التطور العظيم للعلم والفلسفة من طاليس إلى إنكساجوراس ، وفي مثل هذه الفترة البناءة ... تتسرّب من خلال الزمن إلى جماهير الشعب وتؤدي إلى علمٍ شعبي إن لم يكن علمًا ضحلًا وثقافة واسعة الانتشار ، وتصبح التربية الشعبية صبغة للعصر . الأفكار الجديدة المنبثة وسط الشعب تحطّم المسلمات القديمة والأفكار القائمة ، وهكذا يصبح الفكر الذي كان بناءً في الأول ، مدمّرًا وهو يتغلغل وسط الناس ، ثمّ فإنّ التفكير الشعبي في عصر التنوير يفضي إلى الرفض والشك وعدم الإيمان)) (ستيس، ١٩٨٤، صفحة ١٠٧ . ١٠٨) .

يبدو أن وجهة نظر وولتر ستيس بالأثر الذي أحدثه السوفسطائيون ، وجهة نظر محافظة وخجولة ، ولا ترتقي لمستوى الواقع الجديد الذي أحدثه السوفسطائيون في الواقع ؛ ومن تلك النتائج الحاسمة تفشي أفكار الشك وعدم الإيقان ، ومبادئ اللا أدرية في أغلب منهجيات الفلسفة .

مبادئ الشك ، وفلسفة اللايقين لم يكن لها علاقة بعقلية الجماهير كما يظن وولتر ستيس ؛ ذلك أنّ قواعد الشك الممنهج لا تقوى عليها عقلية الجماهير ، بل كانت في صميم ثورة التنوير التي قادها السوفسطائيون ، وغرسوا بذارها عميقًا في تربة الفلسفة . هناك انقلاب حقيقي متجذّر ، وعميق قد تمّ إرساء قواعده في صميم الفكر الفلسفي.

في الظاهر يبدو أن أفلاطون وأرسطو قد كسبوا المعركة ضد السوفسطائيين . نعم قد يبدو ذلك صحيحًا في الظاهر فقط .

ولكن كما يلاحظ المتابعون للتاريخ اليوناني أن الديمقراطية التي بشّر بها السوفسطائيون ، أو على الأقل كانت مصاحبة لانتشار أفكارهم قد أجهزت على الفلسفة الرسمية التي دعا إليها سقراط وأفلاطون وأرسطو ، بصورة متدرّجة ولكنها حاسمة .الضربات المتتالية التي أنزلتها الديمقراطية الشعبية بالفلسفة ابتداءً من إعدام سقراط عام ٣٩٩ ق.م ، وإلى هجرة أفلاطون إلى مصر بعد إعدام سقراط مباشرةً ، إلى إغلاق اللوقيون الذي كان يعلّم فيه أرسطو مبادئ الفلسفة الرسمية بحماية الحزب المقدوني الحاكم ، حتى زمن خروج الفلسفة من بلاد اليونان وإغلاق أكاديمية أفلاطون نهائيا على يد الرومان .

من الطبيعي أن عصر التنوير السوفسطائي قد جاء قبل أوانه بوقتٍ طويل ؛ لذلك لم يتاح له أن يستمر بسبب طبيعة المجتمع اليوناني نفسه ؛ فنظام دولة المدينة الذي يمثل مصالح الطبقة الأورستقراطية قد فرض على البلاد التجزئة ، وجعل من المجتمع اليوناني مجتمعات محلية متعادية ، يتربص بعضها بالبعض الآخر بنظام الأحلاف ؛ وهكذا انشطرت البلاد إلى معسكرين مختلفين : الحلف العسكري الذي تقوده أثينا ، والحلف والعسكري الذي تقوده إسبرطه .

فرضت الروح السوفسطائية ، وبالذات بعد سقوط أثينا وانتصار الحلف الإسبارطي عسكريًا وسياسيًا ، وظهور عوامل قيام المجتمع الإمبراطوري ، بقيادة المقدونيين فيما بعد ، ((طغت على اليونان موجة من الشك ، وعمد الناس إلى القديم يهدمونه بكلّ ما وسِعهم من معاول فاندكت الأورستقراطية دكّا ، وقام على أنقاضها بناء الديمقراطية ، ومحا العلم والفلسفة عقائد الدين الجامدة ... فانحلت الأخلاق والعادات ، وذهبت هيبة السلطات واحترام التقاليد ، واتخذ الجيل الناشئ من عقائد أسلافه موضوعًا للسخرية والفكاهة ... ولم يكن السوفسطائيون إلّا مرآة مجلوّة انعكست على صفحاتها صورة هذا التيار الجارف ؛ فمثّلوا بفلسفتهم وتعاليمهم ما بدا من القوم في حياتهم العملية من ميول ونزعات)) (محمود، ١٩٣٥، الصفحات ٩٢ – ٩٣) .

المبحث الرابع :

منطق العبودية الصارم ونزعة السوفسطائيين في المساواة :

إذا كانت الحركة السوفسطائية في الفلسفة تمثل استجابة اجتماعية وطبيعية لمنطق عصرٍ ديمقراطي يتجدد ويتغيّر ، ويتزامن مع بوادر قيام المجتمعات الموحّدة سياسيا والمتجاوز لعقلية دولة المدينة الأورستقراطية المنعزلة في كانتونات طبقية وسياسية وأحلاف ، وقد عجّل بهذا التحوّل الدرامي قيام ونشوء الإمبراطورية الإخمينية المترامية والتي نجحت في اقتطاع وضم مدن الساحل اليوناني الغربية كلها ، كما احتلت بعض جزر بحر إيجه ،

وهددت المجتمع اليوناني برمته في الربع الأخير من القرن السابع قبل الميلاد ومستهلات القرن السادس قبل الميلاد .

والغريب بهذا الأمر ، وربّما كان أحد الألغاز التي مازالت تنتظر البحث والتحقيق الموضوعيين ؛ كيف اختفى السوفسطائيون بعد قرنين من ظهورهم ، ولماذا زالوا عن الحضور بعد القرن الرابع قبل الميلاد ؟ .

حسب منطق القائمين على الموسوعة الفلسفية الإنكليزية ، مثّل زوال السوفسطائيين في الميدان الفلسفي في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد تراجع تأثير أفكارهم في المجتمع اليوناني بسبب نشوء وظهور مدارس أفلاطون وأرسطو والمدارس التي انبثقت عن تأثيرات تعاليم سقراط المناوئة للفكر السوفسطائي . ((أدّى إنشاء المراكز الدائمة للتعليم العالي مثل مدارس أفلاطون وأرسطو وإيزاقريطس ... أقول إنّ إنشاء تلك المراكز الدائمة أدّى إلى اختفاء السوفسطائيين في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد)) (الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمها : فؤاد كامل وآخرون، ب.ت، صفحة ٢٦٧) .

هذه المغالطات التي اعتدنا أن نقرأها في الموسوعات الفلسفية أو تواريخ الفلسفة ، ومنها الموسوعة الفلسفية الإنكليزية ، عبارة عن مبرارات واهية وعديمة الجدوى ؛ لأنّها ترتكز على مغالطة كبرى ، بل تعتمد على مقدمات سوفسطائية ؛ ومن تلك المغالطات إنّها تجعل الفكر نفسه سبباً للفكر أو لزوال الفكر ، تماما كما زعمت أن زوال الفكر السوفسطائي كان بسبب النشاطات الأكاديمية لمدارس أفلاطون وأرسطو وغيرها .

الفلسفة الأيونية أو الإيلية أو الفيثاغورية أو فلسفة المدارس الأثينية (أفلاطون ، أرسطو ، أبيقور ، الرواقية ... لخ) تمثل عوامل سياسية أو اجتماعية تتلاءم مع مصالح طبقية لمجتمعات التجّار والأورستقراطيين المتنفذين في سلطات المدن التي يحكمونها . فالفلسفة نشأت أساسًا على هبات الأغنياء وعلى فتات موائد الأثرياء والتجار، وحمايتهم ؛ فبمجرّد زوال حكم الطبقة الأورستقراطية (شكليًا على الأقل) وسيادة النظام الديمقراطي ، فسرعان ما تمّ إعدام سقراط ، وهروب أفلاطون إلى مصر ، وغادر أرسطو أثينا طلبًا للنجاة ...

الفلسفة في الأصل غريبة وزائدة على حاجات المجتمع ؛ فلمّا ظهرت بوادر تفكك دولة المدينة التي يقودها الأثرياء ، وزوال حكم الأوليغاركية – الثرية ، شغلت السوفسطائية كحركة فلسفية صبغة شعبية ، عابرة للحدود الأورستقراطية والأوليغاركية ؛ كي تعبّر عن مصالح مجتمع أممي متعدد وكبير .

لقد طرحت السوفسطائية أفكارًا جديدة لم تكن تجرأ عليها فلسفة أفلاطون أو أرسطو من قبل ؛ ففي نصٍ إستثنائي للفيلسوف السوفسطائي هبياس Hippias (النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد) ، نقدم نصّه هاهنا ،

يمثل انقلابًا حقيقيًا على منظومات وأنساق الفكر الأكاديمي الأفلاطوني ، وهذا هو النصّ : ((إنني أعتبركم جميعًا أقرباء وأنسباء ورفاقًا ، مواطنين بحكم الطبيعة ، وليس بحكم القانون الوضعي ؛ لأنّ الأشباه بحكم الطبيعة أقارب وأنسباء ، غير أن القانون وهو الطاغية المستبد المتحكّم في البشر يرغمنا على فعل أشياء كثيرة ضد الطبيعة)) (النشار، ٢٠٠٠، الصفحات ٨٢ –٨٣) .

في النصّ المتقدم يخاطب هبياس الناس مستغلًا حشود الجماهير الغفيرة في إحدى الأولمبيات : بالإشارة والتصريح إنّ الناس كلهم أخوة بالطبيعة ، لا فرق بين السيد والعبد ، ولا الغني ولا الفقير.

إنّ القانون الوضعي الذي يمثل مصالح الأوليغاركيين والمستغلين ' يميّز بين العبد والسيد ، وبين الغني والفقير ، واليوناني والبربري ؛ ذلك أنّ النخب الطبقية لا يمكن لها أن تستمر دون أن تفرّق بين الناس ، وتعزلهم في طبقات اجتماعية مختلفة . شتان ما بين ثورة السوفسطائية في العدل الاجتماعي ، وحق المساواة بين الناس جميعًا ، وبين نظريات أرسطو التجريدية

وفي ثورة السوفسطائية ضد قوى التمييز والإقصاء يؤكد هبياس : ((الاتجاه السوفسطائي في الدفاع عن العمل اليدوي ، وتأكيد قيمته كما أنّه واصل أيضًا إبراز أهمية التمييز بين القانون الطبيعي والقوانين ... الوضعية)) (النشار، ٢٠٠٠، صفحة ٧٩) .

ولو قارنّا هذا القول بما يقوله أرسطو عن حق السيد فيما ملكت يمينه من العبيد والأرقاء لوجدنا أن الفرق بينهما ينتمي إلى عالمين مختلفين . يقول أرسطو: ((حق السيد وحق الأب لا يندمجان في الحقوق التي تكلمنا عليها ... يُفهم في الواقع أنّه لا يوجد ظلم بمعنى الكلمة ممكن في حق من نملك ...)) (طاليس، ١٩٢٤، صفحة ٨٨) .)

في هذا النصّ الوجيز يعطي أرسطو للسيد أو مالك العبد حق التصرّف بعبده كما يشاء ، دون أن يترتب عليه ظلم اجتماعي ... إذن فما طبيعة العدل الذي يتحدّث عنه أرسطو إذا أعطا للسيد والمتنفذ ، مالك الأرقاء حق أن يفعل ما يشاء بغلمانه وعبيده وما ملكت يمينه ؟ . في الحقيقة ، ليس هناك أيّ عدل ذات طبيعية اجتماعية في منظومة أرسطو الخلاقة ، إنّه فقط نوع مجرّد من العدل الميتافيزيقي . عدل فلسفي مجرّد من أيّ واقعية . ذلك العدل الذي يمنح للسيد الأوليغاركي حق شراء العبيد ، وبيعهم بالسعر المناسب ، ويعطيه صلاحية تجويعهم ، وتأديبهم ، وبيعهم ، والتفريق بينهم ... طبعا ، كل ذلك لمصلحة السيد ...

وفي نصّ سوفسطائي أخر ، يقول فيه إنطيفون Antiphon (ولد عام ٤٨٠ ق.م) : ((إننا نحترم أولئك الذين ولدوا في بيتٍ عريق ونمجدهم ، أما الذين لم ينشأوا من أصلٍ نبيل فلا نحترمهم ولا نمجدهم ، وفي هذه الحال لا يتصرف أحدنا بالنسبة لأحدنا الأخر تصرّف المتحضرين بل المتبربرين ، مادامت الطبيعة قد حبت الناس جميعا بنفس المواهب من جميع الوجوه ، سواء كانوا يونانيين أم متبربرين ، وفي مقدور جميع الناس ملاحظة قوانين الطبيعة الضرورية لسائر البشر ، فلا يختصُّ أحدنا بأيّ مزيةٍ من هذه القوى الطبيعية يونانيًا كان أم بربريًا، فنحن جميعًا نستنشق الهواء من الفم والخياشيم ، وكلنا يتناول الطعام باليد ...)) (النشار، ٢٠٠٠، صفحة ٦٨) .

لقد وضع السوفسطائيون ذلك التمييز بين السيد والعبد والذي نجده في نظريات أفلاطون وأرسطو، كموضوع بديهي موضع التساؤل والاستنكار ، فهذا يوربيدس أحد تلاميذ السوفسطائيين ، والمسرحي اليوناني اللامع يقول٠ : ((ولم إنّ العبد ليس إلّا عبدًا بالاسم وليس بالطبيعة ، وهذا هو نفس رأي الكيداماس السوفسطائي تلميذ جورجياس الذي قال : إنّ الآلهة قد خلقت الناس أحرارًا ولم تخلقهم عبيدًا)) (النشار، ٢٠٠٠، صفحة ٦٩) .

تلك الدعوة المبكرة جدًا سابقة لعصرها بأكثر من ألفي سنة على الأقل . لم يكن يخطر لذهن أرسطو أو أفلاطون أي فكرة عن المساواة بين البشر ؛ فمثل هذا الحديث ضرب من الجنون أو التجديف ؛ فقد كانا يؤمنان أن العبودية حالةٌ طبيعية ، بل وهي أمرٌ ضروري . ((يرى أرسطو أن العبودية أمرٌ مكروه ، غلّا أنّه لا مفرّ منه في تدبير شؤون المجتمع الاقتصادية ، ولاسيما شؤون المنزل . ومع أنّه يقرّ أن الطبيعة التي تميّز بين الأعلى والأدنى في كلّ ميدان ؛ قد جعلت بعض الناس عبيدًا ، والبعض الآخر أسيادًا)) (فخري، ب.ت، صفحة ١٢٨) .

قائمة المصادر والمراجع :

١. أحمد زكي نجيب محمود. (١٩٣٥). *قصة الفلسفة اليونانية* (المجلد ٢). القاهرة . مصر: دار الكتب المصرية.
٢. ارسطو طاليس. (١٩٢٤). *علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ج١ ، ترجمة : أحمد لطفي السيد.* القاهرة: دار الصادر.
٣. أفلاطون. (٢٠٠١). *محاورة بروتاجوراس ، ترجمة : عزّت قرني.* القاهرة : دار قباء.
٤. *الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمها : فؤاد كامل وآخرون.* (ب.ت).
٥. فردريك كوبلسن. (٢٠٠٢). *تاريخ الفلسفة ، ج١ ، ترجمة : إمام عبد الفتاح إمام .*
٦. فردريك نيتشه. (١٩٨٣). *الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي ، تعريب : د. سهيل القش.* بيروت . لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

٧. ماجد فخري. (ب.ت). *تاريخ الفلسفة اليونانية.*
٨. محمد علي أبو ريان. (٢٠١٤). *تاريخ الفكر الفلسفي* (المجلد ٢). الإسكندرية . مصر: دار الوفاء.
٩. مصطفى سامي النشار. (٢٠٠٠). *تاريخ الفلسفة من منظور شرقي ، ج٢* . القاهرة . مصر: دار قباء .
١٠. وولتر ستيس. (١٩٨٤). *تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة : مجاهد عبد المنعم ، مجلد أول.* دار الثقافة للنشر والتوزيع .
١١. يوسف كرم. (١٩٣٦). *تاريخ الفلسفة اليونانية* (المجلد ٦). القاهرة: لجنة التأليف والطباعة والنشر.